التوطين الهلالي بالمغرب الأوسط خلال العهد الحمادي من منتصف القرن5هـ/11م إلى منتصف القرن 6هـ/12م (قراءة في طرق وأساليب التوطين و آثاره بتلول وصحراء المغرب الأوسط)

Al-Hilali settlement in the Middle Maghreb from the middle of the 5th century AH / 11 AD to the middle of the 6th century AH / 12 AD(Search for the methods of settlement and its effects in the Hills and the Sahara of the Central Maghreb)

1– بن عريب مصطفى *، قسم التاريخ، جامعة محمد بوضياف، المسيلة (الجزائر)

moustafa.benarib@univ-msila.dz

تاريخ الاستلام: 2021/11/16 تاريخ القبول: 2021/12/22 تاريخ النشر: 2021/12/31

ملخص:

يتناول موضوع البحث في التوطين الهلالي بالمغرب الأوسط خلال العهد الحمادي من منتصف القرن الخامس الهجري/11م إلى منتصف القرن السادس/12م محاولة الوقوف على السياسة التي اعتمدتها الدولة الحمادية في التعامل مع القبائل الهلالية التي تسربت إلى مجالها الجغرافي والعمل على التحكم في انتشارها وفق ما يخدم مصالح الدولة وسلطتها، ثم تتبع جغرافيا الانتشار الهلالي بالمغرب الأوسط وتحديد أهم القبائل والبطون التي تقدمت نحو المغرب الأوسط على غرار: الأثبج، زغبة، رياح، العمور، المعقل وغيرهما والتي نجحت في تثبيت أقدامها بالمغرب الأوسط وحيازتها على مجال جغرافي واسع من ضواحيه ومجالاته الصحراوية في مرحلتين الأولى كانت على حساب مواطن صنهاجة وكتامة بالجهات الشرقية من المغرب الأوسط منتصف القرن الخامس الهجري/ 11م، والثانية بتقدم العرب نحو الجهات الغربية حيث مواطن قبائل زناتة قبل انصرام النصف الأول من القرن السادس

- المؤلف المرسل

الهجري/12م، و كان من تداعياته تراجع نفوذ الدولة الحمادية وانحصار سلطتها في الغالب على المدن والقرى المحصنة أو بتوجه شريحة من بربر المغرب الأوسط نحو الجبال أو الهجرة وترك مواطنها للوافدين والانحدار نحو دواخل الصحراء وأعماقها ونحو المغرب الأقصى، ناهيك عن أثر مجاورة من بقي من البربر في مواطنهم للعرب الهلالية ومشاركتهم في المجالات والضواحي في فتح آفاق للمثاقفة الهلالية البربرية على مستويات عديدة.

الكلمات المفتاحية: العرب الهلالية ، المغرب الأوسط، الدولة الحمادية، الصحراء، زناتة.

Abstract:

The topic of the research deals with learning about the policy of the Hammadid State in dealing with the Hilalian tribes that leaked to, and working to control their spread according to what serves its interests, then follow the spread of the tribes and determines the most important that have advanced towards the Middle Maghreb such as Al-Athbaj,Zaghba,Riah,Al Amour ,Al Maaqual and others which succeeded in impose their dominance in the Middle Maghreb in two phases, the first was at the expense of Sanhaja and Kutama in the east in the middle of 5AH/11AD,and the second was with the advance of the Arabs towards the west where Zenata were settled before the end of the first half of 6AH/12AD with the decline of the influence of the Hammadid State inside the cities or through the migration of the Berbers towards the mountains or Sahara, not to mention the impact of neighborhood of the remaining Berbers in their homelands to the Hilalian Arabs in opening up horizons for the Hilaly Berbers culture on many levels.

Keywords:Hillalian Arabs ;The Central Maghreb ;The Hammadid State ; The Sahara ; Zenata .

مقدمة

استطاع حماد بن بلكين (405-419ه/1014-1029م) مطلع القرن الخامس الهجري/11م أن يستقل بالمغرب الأوسط وينفصل عن أبناء عمومته الزيريين ويبعث مملكة خالصة له ولعقبه من بعده لتكون ثاني دولة بربرية مستقلة ببلاد المغرب الإسلامي خلال تربع صنهاجة على عرش العصبيات البربرية منذ النصف الثاني من القرن الرابع الهجري/ 10م، وعموما وفق ملوك بني حماد في كبح الطموحات التوسعية التي لطالما عمل الزيريون على تحقيقها في بلاد المغرب الإسلامي انطلاقا من المغرب الأوسط،

فضلا على نجاحهم في الحد من خطر القبائل الزناتية واخضاعهم لنفوذ الدولة الحمادية إلى حد بعيد لتكون بذلك المعالم الجغرافية والسياسية للمغرب الأوسط أكثر وضوحا عهد بني حماد، وهو ما جعل الكثيرين يعدون الدولة الحمادية نقطة بداية المغرب الأوسط ككيان سياسي مستقل داخل الدولة الإسلامية العامة مع مراعاة ضرورة الرجوع إلى الدولة الرستمية كبداية سياسية في تاريخ المغرب الأوسط[1].

هذا التوازن السياسي والعسكري والاجتماعي والاقتصادي الذي حققه ملوك بني حماد والذي كان كافيا لإرساء دعائم دولة ذات أبعاد وأفق حضارية متميزة[2]. وهو الوضع الذي استمر إلى تاريخ هجرة القبائل الهلالية ودخولهم إلى بلاد المغرب الإسلامي منتصف القرن الخامس الهجري/11م، وبداية انتشار قبائل وبطون من العرب الهلالية في مجال جغرافي واسع من تلول المغرب الأوسط وصحرائه وهو الانتشار الذي تباينت نتائجه وآثاره عن الجارة إفريقية الزيرية نظرا لاختلاف الظروف السياسية والعسكرية والطبيعة التضاريسية والاجتماعية للدولتين من جهة، ولاعتماد العرب الهلالية على أساليب وطرق محددة في سبيل ضمان انتشارها واكتسابها لأكبر قدر ممكن من المجال الجغرافي للمغرب الأوسط وفقا لخصوصياته من جهة أخرى.

الأمر الذي دفع الدولة الحمادية لاتخاذ جملة من التدابير يمكننا اعتبارها بمثابة سياسة الدولة في مواجهة الانتشار الهلالي سواء بالعمل على تأطيره ضمن ما يخدم استمرار نفوذها وسلطتها أو على الأقل في سعيها لتأمين مصالحها السياسية والاقتصادية وحمايتها للرعية، وهي السياسة التي لم تستطع كبح ووقف التوطين الهلالي الذي أخذ في الامتداد والتسرب نحو ضواحي المغرب الأوسط وأريافه ومجالاته الصحراوية لتكون له بذلك تداعيات وآثار عميقة ظهرت معالمها بوضوح على سلطة الدولة الحمادية وعلى مجالها الجغرافي ونسيجها العمراني وتركيبتها الاجتماعية، وفي زعزعت بنية توطين القبائل البربرية بالتوجه إلى الاعتصام بالحصون والجبال أو بالبحث عن مواطن جديدة، ومن خلال اختيار شريحة من القبائل البربرية مشاركة العرب الهلالية في المواطن والذي فتح آفاق واسعة للمثاقفة الهلالية البربرية كان لها دور في رسم الهوية الاجتماعية والثقافية والحضارية لمجتمع المغرب الأوسط بعد الانتشار الهلالي.

---

[1] حسين مؤنس، **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، ط12، دار الرشاد، القاهرة، 1436هـ/2015م، ص 162.

[2] حول المظاهر الحضارية للدولة الحمادية قبل الهجرة الهلالية أنظر (بويحي الشاذلي، **الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري**، ج2، ترجمة محمد العربي عبد الرزاق، المجمع التونسي للعلوم والآداب، بيت الحكمة، ط1، تونس، 1999م، ص ص432،430؛ حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ص 174،156؛ أ. ف. غوتييه، **ماضي شمال إفريقيا**، ترجمة هاشم الحسني، مؤسسة تاولت الثقافية، (د م)، 2010م، ص ص 224،223.

فماهي الملامح الأولى للحضور الهلالي بالمغرب الأوسط؟ وماهي الإجراءات التي اتخذتها الدولة الحمادية في تعاملها مع القبائل الهلالية أثناء توطينها بالمغرب الأوسط؟ ومن هي أهم القبائل والبطون الهلالية التي توطنت بمجال جغرافي واسع منه؟ وماهي الطرق والأساليب التي اعتمدتها القبائل الهلالية في تجسيد انتشارها وحيازتها لضواحي المغرب الأوسط ومجالاته الصحراوية؟ وكيف كانت نتائج الانتشار الهلالي على مستوى الدولة الحمادية وبنية توطين القبائل البربرية والمثاقفة الهلالية البربرية؟

1. تاريخية الحضور الهلالي بالمغرب الأوسط:

لم يقتصر دور الخلافة الفاطمية في السماح للقبائل العربية من بني هلال وبني سليم وحلفائهما من العرب باجتياز نهر النيل و التوجه غربا والعمل على تأطيرهم وتقديم الدعم لهم،[1] بل منح الخليفة لهذه القبائل حق امتلاك البلاد، فحرص على تقسيم إفريقية ومدنها وأعمالها باعتبارها طبعا مملكة المعز بن باديس(406-453ه/1015-1051م) المتمرد على سلطتهم السياسية والمذهبية فكان الخليفة الفاطمي لما بعثهم إلى إفريقية قد عقد لرجالاتهم على أمصارها وثغورها وقلدهم أعمالها،[2] وهي مسألة تكتسي أهمية بالغة بالنسبة لهؤلاء المهاجرين لكونها تظفي طابع الشرعية على هجرتهم وانتشارهم بالبلاد ومن ثمة

[1] عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري ابن الأثير، **الكامل في التاريخ** ، ج 9، تحقيق أبو صهيب، بيت الأفكار الدولية، السعودية، (د ت)، ص1438؛ أحمد بن عبد الوهاب شهاب الدين النويري، **تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط ـ إفريقية والمغرب والأندلس صقلية و أقريطش ـ من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب** ،تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م، ص 343؛ عبد الرحمن ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**،ج6، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1983م، ص31؛ المقريزي أبو العباس تقي الدين أحمد، **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، ج2، تحقيق جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث، ط1، (د م)، (د ت)، ص216.

[2] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص 41،42؛ تقي الدين المقريزي، المصدر السابق، ج2، ص 218.

امتلاكها، فنادوا بعد وصولهم إلى بلاد المغرب بشعار الخليفة المستنصر الفاطمي(427-487هـ/1035-1094م) [1] وحمل شيوخهم معهم ظهائر وثائق الملكية التي منحت لهم بمصر[2].

إذ المفكر المغربي عبد الله العروي يستثني المغرب الأوسط ومملكة بني حماد من الإقطاعات الفاطمية[3] فإننا نجد في النصوص التاريخية ما يوحي بأن الظهير الفاطمي يتجاوز الرقعة الجغرافية لمملكة الزيرين بإفريقية ليشمل بلاد المغرب أو على الأقل كل المناطق التي يتمكن الهلاليون من فتحها فقد خاطب المستنصر الفاطمي شيوخ القبائل قائلا:« قد أعطيتكم المغرب وملك المعز بن بلكين الصنهاجي العبد الأبق»[4]. مبيحا لهم بذلك المنطقة الممتدة من برقة إلى ما بعدها[5]، فكان هذا الظهير دافعا قويا لإمعان القبائل الهلالية في التقدم أكثر نحو الغرب لاسيما مع توافد موجات متتالية من القبائل والبطون المهاجرة[6].

ويظهر ذلك بعد نجاحهم في الاستلاء على بلاد بني زيري وفرض هيمنتهم على أجزاء واسعة من إفريقية التي تعد المحطة الأولى في خط سير الهجرة الهلالية، واستمرت قبائل وبطون من العرب في السير غربا نحو المغرب الأوسط[7].

ومن مقدماته المبكرة بالجهات الشرقية المحاذية لإفريقية الزيرية أن تمكن الحسن بن سرحان من دريد بطون الأثبج بموجب عقد ظهير منحه له الخليفة الفاطمي يبيح له امتلاك مدينة قسنطينة

---

[1] تقي الدين المقريزي، المصدر السابق، ج2، ص 217؛ إبراهيم محمد الساسي العوامر، **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تعليق الجيلاني بن إبراهيم العوامر، منشورات ثالة، ط2، الجزائر، 2009م، ص 163.

[2] عبد الله العروي، **مجمل تاريخ المغرب**، ج2، المركز الثقافي العربي، ط6، الدار البيضاء، 2000م، ص 101؛ جورج مارسيه، **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، مطبعة المعارف، الإسكندرية، 1991م، ص 223.

[3] المرجع السابق، ج2، ص 94.

[4] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 31.

[5] أبو عبد الله محمد الرعيني ابن أبي دينار، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس**، دار المسيرة، مؤسسة سعيدان، ط3، بيروت، تونس، 1993، ص 105.

[6] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 31؛ محمد ابن أبي دينار، المصدر السابق، 106؛ جورج مارسيه، المرجع السابق، ص 223.

[7] محي الدين عبد الواحد المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، شرحه صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2006م، ص 166؛ دومنيك فاليري، **بجاية ميناء مغاربي(1067-1510م)**، ج1، ترجمة علاو عمارة، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2014م، ص56.

ويبدو أنه ليس الظهير الوحيد في هذه المرحلة حيث تمكن أحد شيوخ بني هلال المعروف باسم أبي مسعود من حيازة مدينة بونة صلحا [1].

وفي ذات السياق تسربت قبائل هلالية أخرى للحواف الصحراوية للمغرب الأوسط مستغلة هذا الفضاء قليل السكان على حد وصف جورج مارسيه[2].

ومما يؤكد أيضا على حضور القبائل الهلالية المبكرة بقسنطينة وبونة والحواف الصحراوية،[3] أن هذه القبائل دخلت وبسرعة في أحداث الدولة الحمادية وصراع ملوكها وحسبنا أنه لما حاول سنة 447هـ / 1056م محسن ابن القائد(446-447هـ/ 1054-1055م) قتل ابن عمه بلكين بن محمد (447-454هـ/ 1055-1062م) استعان بقوم من العرب[4] وكذلك استعمل بلكين بن محمد بعدما اعتلى عرش بني حماد بطون من الأثبج وعدي في حملته على قبائل زناتة سنة 450هـ / 1060م[5].

مما يوحي بأن التواجد الهلالي بالمغرب الأوسط خلال هذه الفترة لم يزعج السلطة الحمادية و لم يحدث اضطرابا كبيرا في بنية التوطين البربري لساكنة المغرب الأوسط، وهو الوضع الذي استمر إلى غاية معركة سبيبة سنة 457هـ/ 1065م عندما حاول الناصر بن علناس الحمادي (454-481هـ/1062-1088م) الاستلاء على مملكة بني زيري بإفريقية فجمع جيش من صنهاجة وزناتة و قبائل الأثبج وعدي الهلالية لكنه انهزم في هذه المعركة أمام التحالف الذي شكلته القبائل الهلالية من رياح وزغبة و بني سليم[6].

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص 112،41،31.

[2] المرجع السابق، ص 323؛ محمد الطمار، **المغرب الأوسط في ظل صنهاجة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010م، ص106.

[3] راضي دغفوس، **دراسات في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1425هـ/2005م، ص ص 212،211؛ دومنيك فاليري، المرجع السابق، ج1، ص 198.

[4] شهاب الدين النويري، المصدر السابق، ص 344؛ عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 353؛ راضي دغفوس، المرجع السابق، ص 212.

[5] علي ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص 1439.

[6] مؤلف مجهول، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986م، ص 355؛ أبو العباس أحمد المراكشي ابن عذارى، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج1، تحقيق ج.س كولان وإ.ليفي بروفنسال ، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2009م،ص 299؛ عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 355.

ففي هذه الهزيمة انكسر الجيش الحمادي وبلغ مجموع القتلى حينذاك من صنهاجة وزناتة أربعة وعشرين ألف قتيل[1]، ويرجع الناصر بن علناس مفلولا وبعد صعوبة شديدة إلى عاصمته القلعة في أقل من مائتا مقاتل[2].

ومن هذا الموقف كانت معركة سبيبة نقطة تحول في سياسة الحماديين نحو القبائل الهلالية من حيث التوجه إلى ضبط مستقبل التوطين الهلالي بما يسمح وحماية المدن الحمادية وسائر رعاياهم بالمغرب الأوسط[3].

وحسبنا في هذا المضمار تحديد علي ابن الأثير (ت 630هـ/ 1238م) لأبعاد هذه الحرب في قوله: «وبهذه الوقعة تم للعرب ملك البلاد فإنهم قدموها في ضيق وقلة دواب فاستغنوا وكثرت دوابهم وسلاحهم وقل المحامي على البلاد»[4]. ما يعني تغيير في موازين القوى لصالح القبائل العربية التي أخذت تتوزع وتمتلك الكثير من جهات المغرب الأوسط[5]. والتي سرعان ما عمت بها الفوضى ليصل الخراب الهلالي إلى بعض

---

[1] علي ابن الأثير، المصدر السابق، ج10، ص1472؛ شهاب الدين النويري، المصدر السابق، ص 355.

[2] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 355.

[3] ظل المغرب الأوسط حسب رأي الهادي روجي إدريس بمعزل عما أحدثته القبائل الهلالية من خراب وحرابة وفوضى على مستوى المجال الجغرافي لإفريقية الزيرية إلى تاريخ انهزام الحماديين في معركة سبيبة سنة 457هـ/1056م. الهادي روجي إدريس، **الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10إلى 12م)**، ج1، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1992. ص 309. وهو الطرح الذي تدعمه شهادات بعض المصادر التاريخية التي ركزت على جسامة الفوضى التي خلفتها القبائل الهلالية عند دخولها بلاد المغرب الإسلامي بمدن وقرى وضواحي إفريقية أكثر من باقي المناطق الأخرى. علي ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص 1439؛ عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 250.

[4] المصدر السابق، ج10، ص1472.

[5] فوزية كرراز، **"صور من الواقع الاجتماعي للقبائل الهلالية بالقلعة وأحوازها"**، ملتقى دولي حول مدينة قلعة بنبي حماد ألف سنة من التأسيس 398-1427هـ/1007-2007م أيام 9و10و11أفريل2007، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ، المسيلة، 2007م، ص 342؛ راضي دغفوس، المرجع السابق، ص 213؛ الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، ص 302؛ محمد الطمار، المرجع السابق، ص 108.

مدن المغرب الأوسط وأحوازها على غرار مدينة طبنة والمسيلة أين فرضوا الإتاوة على السكان مقابل السماح لهم بالخروج إلى العمل في أراضيهم[1].

وهذا يعد دليلا على إخفاق الدولة الحمادية التي فقدت زمام كبح الهلالية الذين فرضوا هيمنتهم على أكبر قدر ممكن من بلاد المغرب الأوسط فكانت هذه الخطوات في التوسع سببا قويا في نهوض قبائل زناتة ومحاولتها الوقوف في وجه تقدمهم، فقد كانت زناتة محافظة على شعائر البدو وأملك للبأس والنجدة، حيث اجتمعت قبائل كل من مغراوة وبني واسين وبني مرين وعبد الواد وتوجين وبني راشد بقيادة وزير بني يعلى ملوك تلمسان أبي سعدي خليفة اليفريني من أجل وضع حد للتوسع الهلالي بمواطن زناتة بالزاب غير أنها أخفقت بعد انكسارها في مواقع ومقامات عديدة، وأدت إلى مقتل قائد هذا التحالف نفسه[2].

ويحسن التنبيه إلى أن التحالف الصنهاجي الزناتي الذي سعى الناصر بن علناس لجمعه وقد جاء متأخرا مقارنة بسير الأحداث والوقائع بإفريقية لذلك لم يستطع دحر العرب الهلالية أو إعاقة انتشارهم[3].

ورغم المحاولات العديدة التي قام بها الناصر من أجل التحالف مع الهلالية إلا أن ذلك عرف كذلك الفشل[4]، مما دفع الحماديين إلى انتهاج سياسة جديدة تعتمد أساسا على إرضاء العرب الهلالية من خلال اتخاذ سلسة من التدابير.

شرع في تجسيدها بداية الناصر بن علناس بتحالفه مع الأثبج ومظاهرتهم على سائر القبائل الهلالية والعمل على إثارة الفتن بينهم[5]، بهدف تشتيت قوتها العسكرية وتبديد طاقاتها في حروب فيما بينها، والحيلولة دون استمرار التحالفات العربية والحد من قوة عصبيتها، وتنازل الدولة الحمادية على البوادي

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص 42،43؛ الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، 308؛ عبد الله العروي، المرجع السابق، ج2، ص 161؛ محمد الطمار، المرجع السابق، ص 109.

[2] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 42؛ الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، 289؛ راضي دغفوس، المرجع السابق، ص 213.

[3] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 42؛ جورج مارسيه، المرجع السابق، ص 229.

[4] المرجع نفسه، ص 229.

[5] عبد الرحمن ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 42؛ الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، ص 289.

والسماح لبني هلال بانفرادهم دون صنهاجة بملك الضواحي[1]، إضافة إلى تقديم الأموال والهدايا والعطايا لشيوخ القبائل بل والعمل حتى على رشوتهم بالمال في بعض الأحيان.[2]

وهي السياسة التي وصلت مع ابنه المنصور بن الناصر (481-498هـ/1089-1105م) إلى أن صالحهم على أن يجعل لهم نصف غلة البلاد من ثمرها وبرها (قمحها) وغير ذلك[3].

فبعد أن فوتوا فرصة توحيد الجهود مع أبناء عمومتهم بني زيري وقبائل زناتة لجأوا إلى سياسة الملاينة والإغراء والتحالف تارة والتفريق بين القبائل العربية تارة أخرى من أجل الحفاظ على الدولة وضمان استمرارها[4]، وكذلك الحد من الفوضى والحرابة وتخريب النسيج العمراني بما يضمن استمرار وتيرة النشاط الفلاحي والحرفي والتجاري في مدن وقرى محمية وطرق تجارية آمنة[5].

2.جغرافيا الانتشار الهلالي بالمغرب الأوسط خلال العهد الحمادي:

سمحت مجريات الأحداث العسكرية والسياسة لصالح انتشار القبائل الهلالية وتمكنها من فرض هيمنتها على مجال جغرافي واسع من المغرب الأوسط. شمل في البداية الجهات الشرقية ومنطقة الزاب وأخذ في الامتداد مع مرور الزمن إلى تخوم المناطق الغربية منه، حيث اكتسحت قبائل وبطون من القبائل الهلالية ضواحي ومجالات واسعة من المغرب الأوسط فكان لكل قبيلة هلالية مضاربها وحيزها الجغرافي المعلوم وفقا لعصبية وقوة كل قبيلة من جهة وعلاقاتها مع الدولة الحمادية من جهة أخرى، فتوزعت القبائل الهلالية على النحو التالي:

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 42.

[2] عزالدين عمر موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار الغرب الإسلامي، ط2، بيروت، 1424هـ/2003م، ص 94.

[3] عبد الواحد المراكشي، المصدر السابق، ص 166؛ محمد حسن، **المدينة والبادية في العهد الحفصي**، ج1، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1999م، ص 40؛ عزالدين عمر موسى، المرجع السابق، ص 142.

[4] أ.ف. غوتييه، المرجع السابق، ص 227؛ عزالدين عمر موسى، المرجع السابق، ص 94.

[5] نفسه، ص 265.

1.2 الأثبج:

تعتبر الأثبج من أوسع قبائل بني هلال وأوفرها عددا وأكثرها بطونا وكان لهم التقدم والرئاسة عند دخولهم بلاد المغرب وبذلك اندرجت الكثير من القبائل العربية في هلال وفي الأثبج خصوصا[1]، ومن بطونها: الضحاك، عياض، مقدم، العاصم، لطيف، دريد، كرفة، وفي كل بطن فروع وعشائر[2].

دخل الأثبج إلى المغرب الأوسط عبر مدينة قفصة وانتشروا بنواحي بسكرة وطبنة والمسيلة ووصلوا إلى قلعة بني حماد [3] واستوثق سلطانهم أكثر بالمغرب الأوسط بعد أن خصهم الحماديين بالتحالف دون سائر القبائل العربية فأنزلوهم في الزاب وأقطعوهم الكثير من أعماله[4]، ومواطن الأثبج على العموم حيال جبال أوراس من شرقية أي بالمثلث قسنطينة- الزاب- الحضنة[5].

فانتشرت دريد في المنطقة الممتدة من بلد العناب إلى قسنطينة إلى طارف مصقلة والمناطق المحاذية للصحراء[6]، لتحوز بذلك على المجال الأكثر خصوبة الممتد من عنابة إلى جنوب قسنطينة[7]، وتجمعت بطون الضحاك ولطيف عهد بني حماد في الزاب[8]، أما كرفة فانتشرت بالجزء الشرقي من جبال

---

[1] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص 36،48؛ إبراهيم إسحاق، **هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلاد السودان**، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، الرياض، 1416هـ/1996م، ص 51.

[2] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 48.

[3] محمد الطمار، المرجع السابق، ص 116.

[4] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص43،93؛ الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، ص309.

[5] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 48؛ محمد حسن، المرجع السابق، ج1، ص 98؛ الطاهر بونابي، **مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط**، سلسلة الكتب الاكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد بوضياف المسيلة، 2017م، ص 125.

[6] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 51.

[7] محمد حسن، المرجع السابق، ج1، ص 99.

[8] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 53.

الأوراس إلى زاب تهوذا وتصل نجعتهم إلى القفار والصحراء[1] في حين استوطنت بطون عياض بجبل قلعة بني حماد بطوله من المشرق إلى المغرب[2].

2.2زغبة:

تنحدر زغبة من القبائل الهلالية وهم خمسة بطون: يزيد، حصين، عامر، مالك، عروة، نزلت زغبة في أول الأمر بنواحي طرابلس وقابس[3] إلا أنهم طردوا من إفريقية من قبائل رياح سنة 466هـ/ 1073م فاتجهت زغبة نحو المغرب الأوسط لتكون في خدمة الحماديين[4] وظهرت رفقة المعقل في جنوب المغرب الأوسط وتفرقوا عند وصولهم ما بين صدراتة والأغواط فعرجت بطون من زغبة نحو الشمال إلى أن وصلوا إلى متيجة وانبثوا في أنحائها[5] في حين اتجهت بطون أخرى نحو الصحراء لتمتد مجالاتهم بين المسيلة إلى قبلة تلمسان في القفار والصحراء[6].

3.2 رياح:

من أكبر قبائل بني هلال وأكثرهم جمعا عند دخولهم إفريقية تحالفوا مع الزيرين فاستقروا بادئ الأمر في معظم مجالات إفريقية وضواحيها[7]، ومع ذلك تسربت بطون منهم عهد الحماديين إلى المغرب الأوسط فدخلت جماعة منهم عبر مدينة باجة وتفرقوا بنواحي القالة بونة قسنطينة إلى القل وجبال بابور ودخلت جماعة أخرى من رياح أيضا عبر سبيبة وانتشروا بنواحي تبسة وجنوب الأوراس وقرب الزاب،[8]

---

[1] نفسه، ج6 ص ص 48، 50،76؛ نوال بلمداني: **نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين (4-5هـ/10-11م)**، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران (الجزائر)، الموسم1434-1435هـ/2013-2014م، ص 125.

[2] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 53.

[3] نفسه، ج6، ص ص85،86،87؛ أبي الحسن علي بن محمد بن الخطيب القريشي التلمساني، **كتاب نسب زغبة ومنتهى أصلهم (جوانب من تاريخ القبائل الهلالية)**، تحقيق نعيمة طيب بوجمعة، النشر الجامعي الجديد، 2019م، تلمسان، الجزائر، ص 117.

[4] ابن عذارى المراكشي، المصدر السابق، ج1، ص 300؛ عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 328؛ محمد ابن أبي دينار: المصدر السابق، ص 107؛ فوزية كرراز، المرجع السابق، ص 340.

[5] محمد الطمار، المرجع السابق، ص 116.

[6] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 86.

[7] نفسه، ج6، ص 69؛ الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، ص 309.

[8] محمد الطمار، المرجع السابق، ص 116.

وتتميز قبائل رياح بكونهم الأكثر ظعنا في الترحال فكانت بطونهم وقبائلهم دائمة الحركة والتنقل بين الجريد إلى القيروان والزاب إلى المسيلة وإلى ورقلة[1]، فشاركت قبائل رياح مع الأثبج في نهاية القرن5ه/ 11م في الهيمنة على منطقتي الزاب والحضنة[2].

4.2 العمور:

من القبائل العربية اللاحقة بالأثبج الهلاليين قبائل العمور والتي تنقسم إلى بطنين هما: قرة، وعبد الله ولم يكن للعمور رئاسة على أحد من بني هلال عند دخولهم إلى بلاد المغرب لقلة عددهم وافتراق ملتهم [3] ومواطنهم بالمغرب الأوسط بالضواحي والجبال ما بين جبل أوراس شرقا إلى جبل راشد من ناحية الحضنة والصحراء [4] ونظرا لقلة عددهم فلم يكن لهم مواطن بتلول المغرب الأوسط بل كانوا أقرب إلى مواطن القفر والصحراء[5].

5.2 المعقل:

دخل المعقل إلى بلاد المغرب في عدد قليل لا يتجاوز المئتان وتحيزوا إلى القبائل الهلالية منذ عهد قديم[6]ويحدد جورج مارسيه دخول المعقل إلى المغرب الأوسط ضمن الموجة الأولى من الهجرة أو بعدها مباشرة ولم يتقدموا لقلة عددهم في قلب ووسط بلاد البربر بل اكتفوا بالبقاء على حدود صحراء إفريقية والمغرب الأوسط [7] وانقسمت مواطنهم بالمغرب الأوسط إلى قسمين حيث اتجه الثعالبة وهم إخوة المعقل نحو المنطقة التلية بشمال المغرب الأوسط فنزلوا ما بين تيطري والمدية إلى أن أزاحتهم عنها قبائل توجين

---

[1] محمد حسن، المرجع السابق، ج1، ص 50؛ نوال بلمداني، المرجع السابق، ص 126.

[2] الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص 125.

[3] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص55؛ محمد حسن، المرجع السابق، ج1، ص 101.

[4] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 55؛ نوال بلمداني، المرجع السابق، ص ص 125،126.

[5] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 55؛ نوال بلمداني، المرجع السابق، ص 126.

[6] أحمد بن خالد الناصري السلاوي، **كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج3، تحقيق أحمد الناصري، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، الدار البيضاء، 2001م، ص 135.

[7] المرجع السابق، ص 231.

الزناتية فاتجهوا إلى سهل متيجة[1] أما بطون المعقل وهم: ذوي عبيد الله، وذوي منصور، وذوي حسان فإنهم اتجهوا منذ البداية إلى الصحراء وجاوروا قبائل زناتة في القفار جنوب تلمسان وتصل نجعتهم إلى صحراء المغرب الأقصى وسجلماسة[2].

ومن هذا التوزيع تكون قبائل الأثبج وزغبة ورياح الهلالية والعمور والمعقل وعدي وغيرهم من القبائل العربية قد توطنت بالمغرب الأوسط، خلال العهد الحمادي بالتلول وضواحيه ومجالاته الصحراوية في دورين أحدهما حربي والآخر سلمي شمل في النصف الثاني من القرن 5هـ/ 11م المنطقة الممتدة من بونة إلى قسنطينة وميلة والزاب وطبنة والمسيلة وقلعة بني حماد والتيطري ومتيجة والأوراس بسكرة وجنوبها وأطراف الصحراء لتمتد خلال القرن السادس الهجري/12م نحو القسم الغربي من المغرب الأوسط حيث مواطن زناتة بتاهرت وجنوب وهران وتلمسان وكان من أبرز آثار هذا الانتشار والتوطين الهلالي انحسار الساكنة البربرية بالمدن والحصون والجبال.

3. طرق وأساليب التوطين الهلالي بالتلول والصحراء:

أحسنت القبائل الهلالية استغلال انتصاراتها العسكرية التي أحرزتها على حساب الدولتين الزيرية والحمادية ثم على قبائل زناتة في تثبيت تواجدها ببلاد المغرب وامتلاكها لمساحات واسعة بعد سنوات فقط من هجرتها في كل من إفريقية والمغرب الأوسط[3]، معتمدة على سياسة التوسع البطيء والتقدم التدريجي من مكان إلى غيره[4]، مستفيدة أيضا من قلة السكان في بعض المناطق جراء الانهيار الديموغرافي الذي عرفته كبرى العصبيات البربرية خلال القرن الرابع الهجري / 10م في كل من إفريقية

[1] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 126؛ حسن بن محمد الفاسي الوزان: **وصف إفريقيا**، ج1، ترجمة محمد حاجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، لبنان، 1983م. ص 56.

[2] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 123؛ الناصري السلاوي، المرجع السابق، ج3، ص ص 135،136؛ محمد الطمار، المرجع السابق، ص 116.

[3] جورج مارسيه، المرجع السابق، ص 223؛ عزالدين عمر موسى، المرجع السابق، ص 93؛ إسحاق إبراهيم، المرجع السابق، ص 54.

[4] شهاب الدين النويري، المصدر السابق، ص 345؛ الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، ص 253؛ غابرييل كامب، **البربر ذاكرة وهوية**، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014م، ص 174.

والمغرب الأوسط بفعل الصراع السياسي والعسكري والمذهبي والتنافس الاقتصادي واتساع دائرة الهجرة البربرية نحو الصحراء والمغرب الأقصى والأندلس ودوره في تسهيل عمليات الانتشار الهلالي[1].

ثم إن هذه الهيمنة العسكرية الهلالية وافقها سعيها الدؤوب منذ خروجها من صعيد مصر من أجل الحصول على مراعي واسعة لقطعانها ومواشيها التي نقلتها معها إلى بلاد المغرب[2]، مما دفعها إلى الانتشار بسرعة في المناطق الشبه صحراوية والسباسب وفي النجود وعلى الحواف الشمالية للصحراء[3]، والذي أدى إلى تحول مجالات الرعي بالمغرب الأوسط من مجالات للقبائل البربرية إلى مجالات خالصة للعرب الهلالية[4].

وإلى جانب حيازة هذه المجالات الصحراوية الملائمة للرعي والترحال امتد الانتشار الهلالي كذلك نحو السهول الواقعة في منطقة التل والبسائط والبوادي والأرياف[5]، فتغلبوا كذلك على ضواحي الدولة الحمادية وانفردوا بملكها وأصبحوا يتحيفون بجوانبها على حد وصف ابن خلدون[6].

وبعبارات أدق افتكاكها للمجال الزراعي والرعوي من قبائل صنهاجة في الزاب والحضنة والسهول الداخلية والسهول الشرقية[7] وهي المنطقة المعروفة أساسا بالنشاط الزراعي والغراسة المختلطة بالرعي لكنها تحولت بعد السيطرة الهلالية في الغالب إلى مراعي لمواشيها وقطعانها ليطغى بذلك ومنذ منتصف

---

[1] علي ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص 1439؛ شهاب النويري، المصدر السابق، ص 343؛ عبد الله العروي، المرجع السابق، ج2، ص 100.

[2] أ. ف. غوتييه، المرجع السابق، ص 226؛ راضي دغفوس، المرجع السابق، ص 208؛ نوال بلمداني، المرجع السابق ص 78؛ علاوة عمارة، **دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008م، ص 21.

[3] ستيفان غزال: **تاريخ شمال إفريقيا القديم**، ج1، ترجمة محمد التازي سعود، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة تاريخ المغرب، الرباط، 2007م، ص 233؛ محمد حسن: المرجع السابق، ج1، ص 36؛ محمد الطمار، المرجع السابق، ص 106.

[4] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 190؛ غابرييل كامب، المرجع السابق، ص 248.

[5] ستيفان غزال، المرجع السابق، ج1، ص 233؛ أ. ف. غوتييه، المرجع السابق، ص 44؛ عزالدين عمر موسى، المرجع السابق، ص 93.

[6] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص ص 35،42.

[7] الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص 124.

القرن الخامس الهجري/11م نمط الترحال والنشاط الرعوي على حساب حياة الاستقرار وحرفة الزراعة والتي انحصرت داخل أسوار المدن والحصون وفي السهول الساحلية أو القريبة من الساحل[1].

ما يعكس كذلك امتداد مجالات الرعي والترحال من الصحراء وأطرافها الشمالية إلى منطقة التلول في الجزء الشرقي من المغرب الأوسط حيث مواطن صنهاجة المغلوبة على أمرها وكتامة التي استنزفت قوتها العسكرية والمادية خلال القرن الرابع الهجري/10م في مرحلة تأسيس الدولة الفاطمية وتوظيفها في تحقيق مشاريعها التوسعية ما جعلها تعيش انحدارا ديموغرافيا أفقدها عصبيتها وقوتها فمن الواضح أن ضعف عصبية قبيلة كتامة وبطونها قد ساهم في تسهيل التغلغل الهلالي بمواطنها وديارها ومجالاتها بشرق المغرب الأوسط[2].

وهذا ما شهد به الرحالة والجغرافيين الذين زاروا المغرب الأوسط بعد الهجرة الهلالية الذين أكدوا على أن المنطقة الممتدة من قسنطينة إلى القل ومن بونة إلى دار ملول -والتي تقع بين نقاوس وجبل أوراس- قد أصبحت مجالات للعرب الهلالية[3]، ناهيك على تغلبهم كذلك على الأراضي المحيطة بكل من مدينة بونة ومرسى الخزر وميلة وحصن بادس -الواقع على ثلاث مراحل من جبل أوراس- وحصن بشر -من أعمال بسكرة- يضاف إلى ذلك تحكمهم أيضا في الطريق الرابط بين القل وجيجل[4]، والمنطقة الممتدة من حد قسنطينة إلى بجاية والتي تحولت هي الأخرى إلى مجالات للعرب وكذلك صار الفضاء الممتد ما بين جبل أوراس إلى بونة وفي شمال الصحراء جهة جبل وسلات -يقع قرب المسيلة- وحول المسيلة كلها مناطق استوطنتها قبائل وبطون بني هلال[5]، وما بين تبسة وسطيف بادية تسكنها القبائل الهلالية[1].

---

[1] عبد الله العروي، المرجع السابق، ج2، ص 95؛ عزالدين عمر موسى، المرجع السابق، ص 198؛ نوال بلمداني، المرجع السابق، ص 127؛ محمد حسن، المرجع السابق، ج1، ص ص 35،371؛ علاوة عمارة، المرجع السابق، ص 18.

[2] وحول انهيار عصبية كتامة وقلة عددها بالمغرب الأوسط أنظر (أبو عبد الله محمد الإدريسي، **المغرب الكبير من نزهة المشتاق**، تحقيق محمد حاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983م، ص 126؛ الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص ص 28،29.)

[3] الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص ص 120،123؛ الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج2، ص 105.

[4] الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص ص 121،125،127،153،154؛ جورج مارسيه، المرجع السابق، ص 242.

[5] أبو الحسن علي ابن موسى ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1970م، ص 37، عبد الرحمن ابن خلدون: العبر، ج6، ص 204.

أما الدور الثاني من الانتشار الهلالي بالمغرب الأوسط فتجسد في توجههم نحو مواطن زناتة فما كاد القرن 6ه/ 12م ينصرم حتى وصلت القبائل الهلالية إلى مجالات زناتة في السهول الداخلية الغربية والصحراء[2]، أين تغلبت على زناتة في مرحلة متقدمة كما أشرنا من قبل وأزاحتها من منطقة الزاب[3]، وأجبرتها على التوجه والانحدار أكثر نحو الغرب والجنوب فانشمر على حد تعبير ابن خلدون بنو واسين وبني مرين وبني عبد الواد وتوجين من الزاب إلى مواطنهم بصحراء المغرب الأوسط ومن مصاب وجبل راشد إلى ملوية فيكيك ثم إلى سجلماسة[4].

ورغم توقف العرب لوقت من الزمن أمام تحالف قبائل بني بادين الزناتية التي نجحت في أن تكون سياجا على التلول القبلية الممتدة ما بين قلعة سعيدة في الغرب إلى المدية في الشرق[5] فإنهم نجحوا في افتكاك المجال الزراعي والرعوي من زناتة في السهول الداخلية الغربية والساحلية وجنوب الصحراء[6].

4. آثار التوطين الهلالي بالمغرب الأوسط:

من الطبيعي أن يتسبب الانتشار الهلالي وتوطينهم بمجال جغرافي واسع من المغرب الأوسط في احداث تغيرات عميقة والتي حدت من نفوذ السلطة الحمادية ومست بنية توطين القبائل البربرية، كما فتحت مشاركة العرب الهلالية في الكثير من أنحاء المغرب الأوسط البربر في مواطنهم أفقا واسعا للمثاقفة فيما بينهما على مستويات عديدة تجاوزت التعريب وانتشار اللسان الهلالي إلى الزي واللباس والعادات وغيرها.

1.4 انحصار الساكنة البربرية بالمدن والحصون والجبال:

أدى امتلاك القبائل الهلالية للضواحي والأرياف والمجالات إلى انسحاب جزء معتبر من الساكنة البربرية منها تدريجيا نحو المدن والحصون للاحتماء بأسوارها أو الاستقرار بالجبال[7]، وهي الصورة الحقيقة

---

[1] شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج2، دار صادر، ط2، بيروت، 1995م، ص 13.

[2] الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص 125؛ محمد حسن، المرجع السابق، ج1، ص31.

[3] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 42.

[4] نفسه، ج7، 128؛ علاوة عمارة، المرجع السابق، ص 18.

[5] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص 95.

[6] الطاهر بونابي، المرجع السابق، ص 124.

[7] غابريل كامب، المرجع السابق، ص 234.

التي نستمدها من نص عبد الرحمن ابن خلدون في وصفه لحالة الانكماش الذي عرفته الساكنة البربرية في قوله: «وتحيز فلهم – البربر – الذين غلبهم العرب على الضواحي إلى الحصون والمعاقل».[1]

ومن الشواهد أن تقلص أراضي الدولة الحمادية في الناحية الشرقية من المغرب الأوسط جراء استيلاء بني هلال على البوادي، فلم يبق بيد الدولة سوى ما ضمته أسوار المدن[2]، ويبدو ذلك جليا بعد هزيمة الحماديين في معركة سبيبة 457هـ/ 1065م فقد تخطى العرب أعمال بني حماد وأحجروهم بالقلعة[3]، ما أدى إلى انحصار سلطة ونفوذ الحماديين وولاة أعمالهم على المدن والأمصار، وصار حالهم في ذلك هو شبيه بحال أبناء عمومتهم الزيرين بإفريقية وهذا ما أقره ابن خلدون كذلك في قوله: «وهجروا – أي العرب – ملوك إفريقية والمغرب من صنهاجة وولاة أعمالهم في الأمصار»[4]. لذلك استمرت كل من دولة بني حماد ودولة بني زيري بعد هذا التوطين الهلالي بإفريقية والمغرب الأوسط مقلصة الظل بالمهدية وبجاية والقلعة وسائر ثغور إفريقية[5].

وحجم الخراب الذي أحدثته الهلالية في مستوى النسيج العمراني بإفريقية والمغرب الأوسط وإذا كان حجم الضرر الذي لحق بعمران إفريقية كبيرا وفادحا[6]، فإنه وفي المغرب الأوسط انحصر في نطاق جغرافي محدود وعلى مدن بعينها لا أكثر[7]. فقد وقفت أسوار المدن الحصينة والطابع التضاريسي الجبلي الغالب على الكثير من حصون وقرى المغرب الأوسط حائلا ومانعا دون استباحت العرب للكثير منها، أضف إلى ذلك أن صيغة التفاهم التي توصل إليها الحماديون مع شيوخ القبائل حيث نجحوا بفضلها أن يحافظوا على مدن المغرب الأوسط[8]، مما أجبر العرب الهلالية على التوقف عند أحواز المدن التي باتوا

---

[1] المصدر السابق، ج7، ص 97.

[2] عزالدين عمر موسى، المرجع السابق، ص 130.

[3] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، ج7، ص 93.

[4] نفسه، ج6، ص 43.

[5] عبد الرحمن ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق عبد الواحد وافي، ج2، دار نهضة مصر، ط8، مصر، 2017م، ص 516.

[6] علي ابن الأثير، المصدر السابق، ج9، ص 1439؛ عبد الواحد المراكشي: المرجع السابق، ص 250.

[7] يحدد الإدريسي مجال الضرر الهلالي في المغرب الأوسط. المصدر السابق، ص ص 137،119،118. وعبد الرحمن ابن خلدون هو الأخر يذكر المدن التي تضررت بفعل الهلالين وهي أحواز القلعة ومدينة طبنة والمسيلة. المصدر السابق، العبر، ج6، ص 362،358،89.

[8] الهادي روجي إدريس، المرجع السابق، ج1، ص 255؛ دومنيك فاليري، المرجع السابق، ج1، ص 155.

يضغطون عليها ويفسدون الطرق المؤدية إليها مما أدى اختناق كثير من المدن وانحصار الساكنة والعمران بها[1].

مما أدى إلى انتشار الحصون والأسواق المنيعة في الأجزاء التي تسلطت عليها العرب وهو ما تؤكده شهادة الشريف الإدريسي (ت 548ه/1154م) خلال وصفه للطريق الرابط بين العاصمتين الحماديتين بجاية والقلعة والذي تخللته الكثير من المحطات الحصينة التي أنشأها الحماديون على طول الطريق الرابط بين العاصمتين[2]، والتي بفضلها تم للحاميات الحمادية من كبح غارات العرب الهلالية فيصف لنا الإدريسي توقف العرب أمامها وعدم قدرتهم على اختراقها بسبب منعتها على غرار حصن خميس وسوق الإثنين وغيرهما من الأمثلة التي قدمها في سياق حديثه[3].

وإلى جانب توجه الساكنة البربرية بالناحية الشرقية نحو المدن والحصون لجأ البربر كذلك إلى المناطق الجبلية الوعرة، والتي أصبحت بدورها معاقل وملاجئ يلوذ بها السكان الذين كانوا يتخلون تدريجيا على السهول والمناطق المستوية للعرب[4]، وهذا ما أكده عبد الرحمن ابن خلدون في نص مقدمته حول سبب امتناع الجبال على العرب بقوله: «والقبائل الممتنعة عليهم – على العرب – بأوعار الجبال بمنجاة من عيثهم وفسادهم لأنهم لا يتسنمون إليهم الهضاب ولا يركبون الصعاب ... أما البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم»[5].

فضلا على وعورة مسالك الجبال على مواشي العرب ورواحلهم الناجعة[6]، ففي المغرب الأوسط مثلا توقف العرب الهلالية أمام جبل سحاو-يقع في الطريق بين قسنطينة وبجاية- وهو من أعلى الجبال

---

[1] نفسه، ج1، ص 255.

[2] يصف الإدريسي الحصون والأسواق والقصور الحصينة في الطريق عند الخروج من بجاية نحو القلعة وأولها حصن تاكلات إلى حصن بكر إلى حصن الحديد إلى حصن السقائف إلى حصن الناظور إلى سوق خميس وهو حصن حصين إلى سوق الإثنين وهو قصر حصين إلى حصن تا فلكانت إلى حصن تازكا إلى قصر عطية وهو حصين ثم إلى حصن إلى حصن ...إلى حصن القلعة. المصدر السابق، ص ص 118،119؛ جورج مارسيه، المرجع السابق، ص 243.

[3] المصدر السابق، ص ص 118،119.

[4] غابريل كامب، المرجع السابق، ص 234؛ فوزية كرراز، المرجع السابق، ص 345.

[5] المقدمة، ج2، ص 507.

[6] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، العبر، ج6، ص 43.

وأسماها ارتفاعا وأصعبها مسلكا فلم تتعده القبائل الهلالية إلى غيره[1]، وإن استولى الهلاليون على البسائط في المنطقة الممتدة بين بجاية وقسنطينة فإن نفوذهم وسطوتهم توقفت أمام ممتنع الجبال[2]، فمن البربر من فر من الهضيمة وعيث العرب وفسادهم في الضواحي والمجالات إلى منعة الجبال[3].

فكانت الهجرة الهلالية أحد أسباب الاختلالات السكانية العجيبة في شمال إفريقيا فجبال ذات تربة فقيرة وشديدة العلو بها كثافة سكانية عالية جدا تفوق في الكثير من الأحيان كثافة سكان السهول والهضاب حيث التربة الخصبة والشروط الملائمة للحياة[4].

2.4 انحدارزناتة جنوب الصحراء:

من الطبيعي أن يحدث الانتشار الهلالي في ضواحي المغرب الأوسط ومجالاته خلخلة في بنيات توطين القبائل البربرية فالأمر لم يقتصر على اعتصام البربر بالجبال والمدن فحسب، بل من القبائل البربرية من اضطرت أمام حيازة العرب الهلالية للكثير من مواطنها إلى التخلي عن مواطنها الأولى وانتقالها للبحث عن مواطن جديدة تكون بعيدة عن أيادي العرب الهلالية وعبثهم[5]. ففي هذا السياق وصف عبد الرحمن ابن خلدون في مواضع متفرقة تحول المجالات الرعوية بالصحراء وحواشيها المحاذية للتلول من مجالات للقبائل البربرية إلى مجالات للعرب الهلالية[6]، موضحا في ذات الوقت انحدار قبائل زناتة نحو أعماق الصحراء كما أشرنا سالفا في قوله:« وانشمر بنو واسين وبني مرين وبني عبد الواد وتوجين من الزاب إلى مواطنهم بصحراء المغرب الأوسط ومن مصاب وجبل راشد إلى ملوية فيكيك ثم إلى سجلماسة»[7].

وبالتالي تقهقر قبائل وبطون زناتة وتخليهم عن مجالاتهم بالزاب ومصاب وجبل راشد إلى ما وراء عرق الرمل الأملس بصحراء المغرب الأوسط والوصول حتى صحراء المغرب الأقصى لتظهر معالم حدود جغرافية جديدة تفصل بين مواطن العرب الهلالية وقبائل زناتة، فأصبحت جبال راشد والتي تحول اسمها من الاسم البربري بني راشد إلى جبال لعمور نسبة إلى قبيلة لعمور العربية وهو مؤشر طبونومي يؤكد على

---

[1] الشريف الإدريسي، المصدر السابق، ص ص 124،123.

[2] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، العبر، ج6، ص 204.

[3] نفسه، ج6، ص 43.

[4] غابرييل كامب، المرجع السابق، ص 234.

[5] جورج مارسيه، المرجع السابق، ص 238.

[6] العبر، ج6، ص 199.

[7] نفسه، ج7، ص 128.

فعالية وقوة نتائج التوطين الهلالي بالمغرب الأوسط[1]، وأرض مصاب بالجنوب الحد الجغرافي الذي يفصل مجالات العرب عن مجالات زناتة بالمغرب الأوسط[2].

3.4 المثاقفة الهلالية البربرية:

وإن اتجهت قبائل من البربر نحو الحصون والمدن والاعتصام بالجبال أو تغيير مواطنها والانتقال إلى مناطق أخرى فمن قبائل البربر التي فقدت عصبيتها من اختارت مشاركة العرب في أوطانهم والانتقال معهم في حلهم وترحالهم والتي أتاحت حصول جملة من المتغيرات رصدها ابن خلدون في قوله:« فقد انقلبت أحوال المغرب الذي نحن شاهدوه، وتبدلت بالجملة واعتاض من أجيال البربر أهله حين طرأ فيه من لدن المائة الخامسة من أجيال العرب فكسروهم وغلبوهم وانتزعوا منهم عامة الأوطان وشاركوهم فيما بقي من البلدان لملكهم»[3].

فكان الجوار والتساكن واقتسام المجال الجغرافي بين العرب الهلالية والبربر في مواطنهم عاملا قويا في قيام علاقات التأثير والتأثر فيما بينهم[4]، ناهيك عن دور تشابه نشاط العرب الهلالية القائم أساسا في هذه المرحلة على النجعة والترحال مع الكثير من القبائل البربرية في تسهيل عملية التلاقح الثقافي[5] والذي ظهرت بوادره في الناحية الشرقية من المغرب الأوسط لتوطين العرب الهلالية بها في وقت مبكر ولضعف العصبيات البربرية بتلك الجهات كما أشرنا إليه سابقا[6]، ففي هذا الصدد يقدم ابن خلدون نماذج متعددة حول انتقال قبائل من البربر على غرار هوارة التي بتبسة وقبيلة ولهاصة التي كانت

---

[1] يسميه ابن خلدون جبل بني راشد وهو نسبة إلى بطن بني راشد من شعوب بني بادين الطبقة الثانية لزناتة والذي تغير اسمه بعد التوطين الهلالي بالمغرب الأوسط إلى اسم لعمور نسبة إلى قبيلة لعمور العربية. نفسه، ج7، ص ص128،121،24؛ أ.ف. غوتييه، المرجع السابق، ص ص 119،114.

[2] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، العبر، ج6، ص ص 42،46؛ جورج مارسيه، المرجع السابق، ص 240.

[3] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، المقدمة، ج 1، ص ص 325،326.

[4] محمد الكوخي، **سؤال الهوية في شمال إفريقيا (التعدد والانصهار في و اقع الانسان واللغة والثقافة والتاريخ)**، إفريقيا الشرق، المغرب الأقصى، 2014، ص90.

[5] غابرييل كامب، المرجع السابق، ص ص 323،231.

[6] الشريف الإدريسي، المرجع السابق، ص 126؛ عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، العبر، ج6، ص 302.

ببسيط بونة والسدويكشيين الكتاميين الذين كانوا بالبسائط بين قسنطينة وبونة وكذلك قبيلة عجيسة التي كانت بضواحي قلعة بني حماد إلى اللسان الهلالي وتخليهم على رطانتهم البربرية[1] ولم يقتصر الأمر على انتشار اللسان الهلالي بين البربر فحسب، بل تعداه إلى اللباس والزي وإيلاف الرحلتين وغيرها والذي ألمح إليه ابن خلدون في سياق حديثه عن قبيلة ولهاصة في قوله:« ويأخذون بمذاهب العرب في زيهم ولغتهم وسائر شعارهم كما هو شأن هوارة»[2]. معبرا في موضع آخر على قوة التفاعل الهلالي البربري في قوله أيضا:« وتحلوا – البربر- بشعارهم في جميع أحوالهم إلى أن أصبح من العسير التمييز بينهم»[3].

وامتد أثر المثاقفة الهلالية البربرية إلى الناحية الغربية من المغرب الأوسط ويكفي أن نستشهد في هذا المقام بالعلاقات السياسية والاجتماعية والثقافية التي نشأت بين قبيلة زغبة الهلالية وبني بادين الزناتية في القرن السادس الهجري/12م[4]، وبذلك كان التوطين الهلالي بالمغرب الأوسط نقطة تحول هامة ساهمت إلى حد بعيد في رسم الهوية الاجتماعية والثقافية والحضارية لمجتمع المغرب الأوسط بعد النصف الثاني من القرن الخامس الهجري/11م.

خاتمة:

وفي الأخير نستطيع القول أنه من العسير فعلا دراسة التاريخ الاجتماعي للمغرب الأوسط عهد الدولة الحمادية وما بعدها بمعزل عن تداعيات التوطين الهلالي بالمغرب الأوسط، باعتباره من أبرز الأحداث التي غيرت وجه المغرب الأوسط فرغم سعي الحماديين لتأطير الانتشار الهلالي إلا أنهم لم يملكوا على ما يبدو حينذاك الآليات الحقيقة والمناسبة لمواجهة واقع الانتشار الهلالي والذي تجسد في الانتشار المبكر لقبائل وبطون من العرب الهلالية بالناحية الشرقية للمغرب الأوسط وبلاد الزاب مرورا إلى مشارف الناحية الغربية منه على غرار: الأثبج وزغبة ورياح والعمور والمعقل وغيرها.

مستغلين سياسة اللين التي لجأت إليها الدولة الحمادية ومتقدمين ببطيء نحو الضواحي والمجالات الصحراوية مستفيدين من قلة السكان في بعض الجهات ومن انتصاراتهم العسكرية التي دفعت بعض القبائل البربرية لترك مواطنها أمام مزاحمة العرب الهلالية واتجهت نحو دواخل الصحراء وصحراء

---

[1] نفسه، ج6، ص ص 233، 288،301. حول انتقال كتامة وعجيسة للسان الهلالي أنظر (موسى لقبال، **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن5هـ**، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1979، ص ص 71،124.)

[2] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق، العبر، ج6، ص 233.

[3] عبد الرحمن ابن خلدون، المصدر السابق ، العبر، ج6، ص ص 204،233،288.

[4] نفسه، ج6، ص ص 46،47؛ وحول انتقال بني يفرن للسان الهلالي أنظر (غابرييل كامب، المرجع السابق، ص 166.)

المغرب الأقصى فضلا على مشاركتهم لمن بقي من القبائل البربرية الضعيفة في موطنها وهو ما أتاح فرصة للمثاقفة الهلالية البربرية على مستويات عديدة كانتشار اللسان الهلالي والزي واللباس والعادات وغيرها.

وهو التوطين الذي سيشهد تغيرات قوية بعد سقوط الدولة الحمادية وقيام الدولة الموحدية وعملها على تجسيد مشروعها السياسي والاجتماعي والديني بكامل بلاد المغرب الاسلامي وهو المشروع الذي سيترتب عليه خريطة توطين جديدة ومغايرة تماما لما كانت عليه في العهد الحمادي.

قائمة المصادر والمراجع:

أولا المصادر:

الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد (ت 548هـ/1154م)،**المغرب الكبير من نزهة المشتاق**، تحقيق محمد حاج صادق، ديوان المطبوعات الجامعة، الجزائر، 1983م.

ابن الأثير عزالدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الجزري (630هـ/1238م)،**الكامل في التاريخ**، ج9، ج10،اعتنى به أبو صهيب، بيت الأفكار الدولية، السعودية، (د ت).

ابن أبي دينار أبو عبد الله محمد الرعيني (ت 1110هـ / 1699م)، **المؤنس في أخبار إفريقية وتونس، دار المسيرة، مؤسسة سعيدان**، ط3، بيروت، تونس،1993م.

الوزان حسن بن محمد الفاسي (ت 947هـ/1550م)، **وصف إفريقيا**، ج1، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط2، لبنان، 1983م.

الحموي شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي (ت 626هـ/1228م)، **معجم البلدان**، ج2، دار صادر، ط2، بيروت، 1995م.

مجهول (عاش في القرن 6هـ/12م)، **الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، 1986م.

المقريزي أبو العباس أحمد بن علي تقي الدين (ت 846هـ/1442م)، **اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفاء**، ج2، تحقيق جمال الدين الشيال، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء التراث، ط1، (د م)، (د ت).

المراكشي محي الدين عبد الواحد (ت في النصف الثاني من القرن7هـ/13م)، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، شرحه صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 1426هـ/ 2006م.

ابن سعيد المغربي أبو الحسن علي ابن موسى (ت 685هـ/1286م)، **كتاب الجغرافيا**، تحقيق إسماعيل العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، ط1، الجزائر، 1970م.

ابن عذارى أبو العباس أحمد المراكشي (كان حيا 712هـ/1312م)، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج1، تحقيق ج.س. كولان و إ. ليفي بروفنسال، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت، 2009م.

ابن الخطيب أبو الحسن علي بن محمد، **كتاب نسب زغبة منتهى أصلهم (جوانب من تاريخ القبائل الهلالية)**، تحقيق طيب بوجمعة نعيمة، النشر الجامعي الجديد، تلمسان، الجزائر، 2019م.

ابن خلدون أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1405م)، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج6، ج7، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 1983م.

ـــــــ، **مقدمة ابن خلدون**، ج1، ج2، تحقيق عبد الواحد وافي، دار نهضة مصر، ط8، مصر، 2017م.

النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت 732هـ/1332م)، **تاريخ المغرب الإسلامي في العصر الوسيط – إفريقية والمغرب والأندلس صقلية و أقريطش – من كتاب نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق مصطفى أبو ضيف أحمد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1985م.

ثانيا المراجع العربية:

إسحاق إبراهيم، **هجرات الهلاليين من جزيرة العرب إلى شمال إفريقيا وبلاد السودان**، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ط1، الرياض، 1416هـ-1996م.

بونابي الطاهر، **مظاهر المجال والدين والمجتمع بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط**، سلسلة الكتب الاكاديمية لكلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة محمد بوضياف المسيلة، 2017م.

بلمداني نوال، **نظام الرعي في بلاد المغرب الأوسط خلال القرنين (4-5هـ/10-11م)**، أطروحة دكتوراه، غير منشورة، قسم التاريخ وعلم الآثار، جامعة وهران (الجزائر)، الموسم1434-1435هـ/2013-2014م.

دغفوس راضي، **دراسات في التاريخ العربي الإسلامي الوسيط**، دار الغرب الإسلامي، ط1، بيروت، 1425هـ/2005م.

حسن محمد، **المدينة والبادية في العهد الحفصي**، ج1، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1999م.

الطمار محمد، **المغرب الأوسط في ظل صنهاجة**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010م.

الكوفي محمد، **سؤال الهوية في شمال إفريقيا (التعدد والانصهار في و اقع الانسان واللغة والثقافة والتاريخ)**، إفريقيا الشرق، المغرب الأقصى، 2014م.

كرراز فوزية: "صور من الواقع الاجتماعي للقبائل الهلالية بالقلعة وأحوازها"، ملتقى دولي حول مدينة قلعة بني حماد ألف سنة من التأسيس 398-1427ه/1007-2007م أيام 9و10و11أفريل2007م، كلية الآداب والعلوم الاجتماعية، قسم التاريخ، المسيلة (الجزائر)، 2007م.

لقبال موسى، **دور كتامة في تاريخ الخلافة الفاطمية منذ تأسيسها إلى منتصف القرن5ه**، الشركة الوطنية للنشر، الجزائر، 1979م.

مؤنس حسين، **معالم تاريخ المغرب والأندلس**، دار الرشاد، ط12، القاهرة، 1436ه/2015م.

موسى عمر عزالدين، **النشاط الاقتصادي في المغرب خلال القرن 6ه**، دار الشرق، ط1، بيروت، 1403ه /1983م.

محمد الساسي العوامر إبراهيم، **الصروف في تاريخ الصحراء وسوف**، تعليق الجيلاني بن إبراهيم العوامر، منشورات ثالة، ط2، الجزائر، 2009م.

الناصري السلاوي أحمد بن خالد، **كتاب الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى**، ج3، تحقيق أحمد الناصري، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، الدار البيضاء، 2001م.

عمارة علاوة، **دراسات في التاريخ الوسيط للجزائر والغرب الإسلامي**، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،2008م.

العروي عبد الله، **مجمل تاريخ المغرب**، ج2، المركز الثقافي العربي، ط6، الدار البيضاء، 2000م.

المراجع المعربة:

كامب غابرييل، **البربر ذاكرة وهوية**، ترجمة عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2014م.

مارسيه جورج، **بلاد المغرب وعلاقاتها بالمشرق الإسلامي في العصور الوسطى**، ترجمة محمود عبد الصمد هيكل، مطبعة المعارف، الإسكندرية، 1991م.

فاليري دومينيك، **بجاية ميناء مغاربي (1067-1510م)**، ج1، ترجمة علاوة عمارة، المجلس الأعلى للغة العربية، الجزائر، 2014م.

روجي إدريس الهادي، **الدولة الصنهاجية (تاريخ إفريقية في عهد بني زيري من القرن 10إلى 12م)**، ج1، ج2، ترجمة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، ط1، لبنان، 1992م.

الشاذلي بويحي، **الحياة الأدبية بإفريقية في عهد بني زيري**، ج2، ترجمة محمد العربي عبد الرزاق، المجمع التونسي للعلوم والآداب، بيت الحكمة، ط1، تونس، 1999م.

غوتييه أ. ف، **ماضي شمال إفريقيا**، ترجمة هاشم الحسني، مؤسسة تاولت الثقافية، (د م)، 2010م.

غزال ستيفان، **تاريخ شمال إفريقيا القديم**، ج1، ترجمة محمد التازي سعود، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية سلسلة تاريخ المغرب، الرباط، 2007م.